



اقتران الهرج بالجهل

■ أ. د. ناصر القفاري
N0380@hotmail.com
@Prof_Alqefari

يظن بعض الناس أن انتشار محاضن العلم، وتنامي حلق الذكر من أسباب انتشار العنف، وفشو التطرف، مع أنك إذا تأملت الواقع وجدت أهل العنف والتطرف هم ممن لم يتلقَ العلم من منابعه الصافية، وما دفعهم إلى هذا التطرف والغلو إلا الجهل وقلة العلم.

ويؤكد هذا ما نشر مؤخراً تحت عنوان: «نسبة دارسي الشريعة في التنظيمات الإرهابية»، جاء فيه: في شهر آذار/ مارس لعام ٢٠١٦م حصلت شبكة الأخبار البريطانية Sky News على أكبر تسريب وثائق خاص بالتنظيم الإرهابي المعروف بـ«تنظيم الدولة الإسلامية». عدة آلاف من الوثائق الخطيرة سُربت من أحد المنشقين عن التنظيم، والذي سلمها بنفسه للشبكة في تركيا، وُصفت هذه التسريبات بـ«ويكليكس داعش»، ومن بين الوثائق ما يزيد عن اثنين وعشرين ألف سجل تعريفي بالأعضاء المنظمين، قَدِموا من ما يزيد عن واحد وخمسين دولة، شملت الوثائق بيانات تفصيلية عن أعضاء التنظيم، تضمنت سؤالهم عن درجة تحصيلهم العلمي، وعن مستوى التحصيل الشرعي المعرفي لديهم، هذه البيانات تغطي الفترة من أوائل عام ٢٠١٣ إلى أواخر عام ٢٠١٤م.

شـرع المركز الأمريكي لمكافحة الإرهـاب التابع للجيش الأمريكي CTC بتحليل بيانات هذه الوثائق، وأصدر تقريره في شـهر نيسـان/ أبريل لعام ٢٠١٦م، ومـا يعنينا في هذا التقرير هو تحليل نتائج الإجابة على سؤال مستوى تحصيل العلم الشـرعي لدى أعضاء التنظيم، حيث كان السـؤال في البطاقـة التعريفية بالأفراد عن المسـتوى الشـرعي لديهم، وكانت خيارات الإجابة هي: طالب علم، متوسـط، بسـيط. وأفضت البيانات إلى أن ما نسـبته ٧٠٪ من أعضاء التنظيم وصفوا معرفتهم بالشريعة الإسلامية بـ«البسيطة»، في حين وصف ٢٣٪ معرفته بالمتوسطة، و٢٪ غير معروف، وما نسبته ٥٪ فقط وصفوا معرفتهم بالشـريعة الإسلامية بـ«المتقدمة» أي «طالب علم»، وعن عدد الدارسـين للشريعة في التنظيم فقد سـجل ما عدده (١١٩) مجنداً أنهم درسوا الشريعة إما في كلية أو مدرسـة دينية، أي ما يشـكل ١,٢٪ فقط داخل التنظيم بالمقارنة مع باقي التخصصات[١].

وهذه الحقيقة تقررها نصوص الشـريعة، وتشـهد لها وقائـع التاريخ، فـأول جماعة متطرفة وجـدت في تاريخ المسـلمين هـي الخـوارج، وهـي أول طائفـة خرجت عن الجماعـة، واتخذت من قتـل المخالف دينـاً وعقيدة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أول سيف سُلَّ على الخلاف في القواعد الدينية سيف الخوارج، وقتالهم من أعظم القتال، وهـم الذين ابتدعوا أقوالاً خالفوا فيهـا الصحابة وقاتلوا عليهـا»[٢]، وسـبب ذلك كما جاء فـي الأحاديث هو الجهل وسـوء الفهم؛ ولجهلهم فإنهم يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان، ومع كثرة عبادتهم وتلاوتهم للقرآن إلا إنهم لا يفهمون معانيه، فلا يميزون بين الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبـين، والخـاص والعام، والمطلق والمقيـد، فكانوا - كما قال ابن القيم -: «للنصوص معظمين، وبها مستدلين، ولها علـى العقول والآراء مقدمين، ولم يدَّعِ أحدٌ منهم أن عنده عقلياتٍ تعارض النصوص، وإنما أُتوا من سوء الفهم فيها، والاسـتبداد بما ظهر لهم منهـا دون مَن قَبلهم، ورأوا أنهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم»[٣].

(١) انظر المقال كاملاً على هذا الرابط: (http://islamonline.net/20548).
(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٣٨).
(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٧٠).

ولذا قال ﷺ: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سـفهاء الأحـلام، يقولون من خير قـول البرية، يمرقون من الإسـلام كما يمرق السـهم مـن الرمية، لا يجـاوز إيمانهم حناجرهـم، فأينما لقيتموهـم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»[٤].

وجـاء في وصفهـم أيضاً: «يقـرؤون القـرآن لا يجاوز حناجرهم»[٥]، قال الشـاطبي: «يعنـي: أنهم لم يتفقهوا فيه، فهو في ألسنتهم لا في قلوبهم»[٦].

ومن فرط جهلهم أنهم - كما يقول ابن عمر -: «انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين»[٧].

> ”إن تحصين الجبهة الداخلية من التأثيرات الأجنبية إنما يكون ببناء الإنسان، والعلم هو أكبر ركيزة أساسية في البناء“

وهـذا شـأن أهل الابتـداع والغلو، ولذا قـال ابن القيم رحمـه الله: «سـوء الفهم عن الله ورسـوله أصـل كل بدعة وضلالـة نشـأت في الإسـلام، بـل هو أصـل كل خطأ في الأصـول والفروع، ولا سـيما إن أضيف إليه سـوء القصد، فيتفق سـوء الفهم في بعض الأشـياء من المتبوع مع حسـن قصده وسـوء القصد من التابع، فيا محنة الدين وأهله والله المسـتعان، وهل أوقـع القدرية والمرجئة والخـوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله؟!»[٨].

وقد حفلت السنة النبوية بالحديث عن كثرة شيوع القتل فـي آخر الزمـان، وقرنت ذلك بقلة العلم، وانتشـار الجهل، فعـن أبي هريرة رضي اللـه عنه عن النبي ﷺ قال: «يقبض العلـم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج»، قيل: يا رسـول

(٤) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).
(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).
(٦) الاعتصام (٢/ ٤٧١).
(٧) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٩/ ١٦).
(٨) الروح (ص٦٣).



اللـه، ومـا الهـرج؟ فقال: هكـذا بيده فحرفها، كأنه يريد القتل[1].

وعن أبـي هريرة رضـي الله عنه، قـال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم السـاعة حتـى يقبـض العلـم، وتكثر الـزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهـر الفتن، ويكثر الهرج – وهو القتل القتل –»[2].

وعـن عبد اللـه بن مسـعود، وأبي موسـى – رضي الله عنهما – قالا: قال النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأياماً، ينزل فيهـا الجهل، ويرفـع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج» والهرج: القتل[3].

و«الهـرج» كلمة مأخـوذة من اللغة الحبشـية القديمـة، وترجمتهـا القتل، كما جاء في الأحاديث السـابقة[4].

فتأمل اقتران كثرة القتل بقلة العلم مما يـدل على أن الجهـل أو قلة العلم هو سـبب انتشـار القتل، وهذه الدلالة مأخـوذة من النص النبوي الذي هو من العلـم الذي لا يتطـرق إليه الخطأ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه صادر عـن المعصوم الذي لا ينطق عـن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وهو يشـير إلى أن تجفيف منابع العلم مؤذن بسـيادة الجهل، وانتشـار الجهل يؤدي إلى التساهل بالقتل والدماء.

ولا يوجد دستور في العالم يحفظ حقوق الإنسـان كدين الإسـلام، وفي القـرآن: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وفـي التنزيـل الإلهـي توعـد الله القاتل بخمس عقوبات كبرى: نار جهنم، الخلـود فيهـا (وهـو المكـث الطويل)، غضـب اللـه عليـه، لعن الله لـه (وهو طـرده وإبعاده من رحمة الله)، والعذاب العظيم؛ قـال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، ولذلـك روي عـن ابـن عباس أن القاتل لا توبة له[5].

وفـي البيان النبوي عـن البراء بن عازب رضـي الله عنه، أن رسـول الله ﷺ قال: «لـزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[6].

وعن ابن عمـر – رضي الله عنهما – قال: قال رسـول اللـه ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دماً حراماً»[7].

بل تجاوز الإسـلام ذلك إلى تحريم الاعتداء على الكافرين المستأمنين غير المحاربـين، عـن عبد الله بـن عمرو – رضي الله عنهما –، عن النبي ﷺ قال:

(١) أخرجه البخاري (٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (٢٦٧٢).
(٤) انظر: صحيح البخاري (٩/ ٤٨).
(٥) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٦٣).
(٦) أخرجه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٣٩٨٧)، وابن ماجه (٢٦١٩)، وجود ابن كثير إسناده (إرشاد الفقيه ٢/ ٢٥٨).
(٧) أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

«من قتل معاهَداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»[1].

بل أمر الإسلام ببرهم والإحسان إليهم إذا لم يقاتلونا ولم يخرجونا من ديارنا، قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فإذا كانت هذه مبادئ الإسلام، فما الذي ينبغي فعله لمواجهة تيار العنف والتطرف في بلاد المسلمين؟

البيان النبوي المتقدم يبين أن العلاج يتمثل في نشر العلم الشرعي، وتعزيز دور العلماء في المجتمع.

وهذه حقيقة من الحقائق المهمة؛ ولذا فإن من يسعى إلى تجفيف منابع العلم بزعم مواجهة الإرهاب والعنف والتطرف فإنما يسعى في الحقيقة لتأجيجه ونشره وإشاعته، وهو كمن يصب الزيت على النار، فلا يزيدها إلا اشتعالاً، ومهما قيل عن الدور الخارجي أو التآمر الأجنبي فإنه يتضاءل أثره مع وجود العلم وانتشار الوعي وشيوع المعرفة.

إن تحصين الجبهة الداخلية من التأثيرات الأجنبية إنما يكون ببناء الإنسان، والعلم هو أكبر ركيزة أساسية في البناء، ولذلك فإن أهل العلم الرباني يدركون هذه الحقيقة؛ لأنها مقتضى النصوص الشرعية، ولهذا بوب الإمام البخاري باباً بعنوان «باب العلم قبل القول والعمل»، ثم استدل بقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ثم قال: «فبدأ بالعلم»[2].

والله سبحانه هو خالق الإنسان، وهو العالم بما يصلحه ويفسده، والإنسان حين خلق فطر على كراهة الشر وحب الخير، يكره العدوان ويحب السلام، يرفض الظلم وينشد العدل، لم يولد ساذجاً لا يعرف شركاً ولا توحيداً، ولا خيراً ولا شرّاً، وأنه كالصفحة البيضاء تقبل ما ينقش فيها ويكتب من خير أو شر - كما يقال -، بل يولد ولديه الاستعداد للخير والقبول للحق، ما لم يأته تأثير أجنبي، فلديه - كما يقول ابن تيمية -: «القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع: هي فطرة الله التي فطر الناس عليها»[3].

وهذا ما نص عليه الرسول ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»[4]. ولم يقل: أو يسلمانه، وفي رواية: «ما من مولود يولد إلا وهو على الملة»[5]، وقد أجمع السلف على أن المراد بالفطرة الإسلام، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وليس المراد أنه يولد عارفاً بالإسلام، بل يولد ولديه الاستعداد لقبول الدين الحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وينسجم مع فطرته ومع الكون من حوله، ويتواصل مع مسيرة الأنبياء والصالحين، فإذا جاءه الحق - وكان قد تجرد من موانع الاستجابة - أقبلت فطرته عليه.

ولذلك كان سلاح الأنبياء كلمة توقظ الفطرة، وتنير العقل، وتهدي إلى الصراط المستقيم، وهذه الكلمة هي سلام للإنسان مع نفسه، ومع غيره، ورحمة من الله به، ولذلك أرسل الله الرسل رحمة للناس أجمعين، وقد تقرر في كتاب الله تعالى أن المقتضي لإرسال الرسل من جهة الرب جل وعلا هو الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقد بعث الله مع رسله ما فيه حياة الناس التي لا يحيون إلا بها، ونور طريقهم الذي لا يهتدون إلا به، وشفاء عللهم وأدوائهم.

ولذلك سمى الله تعالى ما أنزله على رسوله نوراً؛ لتوقف الهداية على الاستماع إليه والاستجابة له: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، كما سماه روحاً؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وسماه شفاء؛ لأن فيه الشفاء التام لأمراض القلوب والأبدان، وعلل الأمم والشعوب والأفراد: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

والحقيقة التي لا مرية فيها أن حياة الإنسان الحقيقية وسلامته التامة الدائمة إنما تكون بالإيمان، كما قال سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وأصل الإيمان وأساسه هو العلم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٥) أخرجها مسلم (٢٦٥٨).